

قيم إنسانية في الشعر العربي

محمد مروان مراد*

في دواوين الشعر العربي ثمة مجموعة متميزة من القصائد، ينتظمها قاسم مشترك: إنها على قافية اللام، وهي قافية مطواع، تمد الشاعر بمفردات كثيرة، فهي منجم لقواف يسيرة، يختمها روي اللام، هذا الحرف الذي يتشكل بصيغ صرفية متنوعة، ويتقبل الحركات الأربع، ليتكون منها إيقاع جمالي يغري الشعراء بالنظم عليه.

الإنعتاق من العبودية، والمتنرد على الضيم، والداعي إلى نوع من مكارم الأخلاق والمتعارف عليها في الجاهلية، وساعده تأمله في الحياتين الاجتماعية والفكرية على صياغة أفكاره على شكل حكم وأمثال تفاعرت في ثنايا القصيدة، ولعل مجموعة السجايا العربية التي حفلت بها القصيدة دعت إلى نعتها بلامية العرب.

٢ - لامية العجم للطغرائي: الحسين بن علي ١٠٦١ - ١١٢١ م، وهو أديب فاق أهل عصره بصنعه النظم والنشر مولود بأصبهان.. وعاش في بغداد وكتب للسلطان «ملكشاه» وابنيه محمد ومسعود في أربيل والموصل، تولى الوزارة، فلما دب الصراع بين الأخوين وانتهى بانتصار محمد، قبض على الطغرائي، وقتل بتهمة الإلحاد، له ديوان شعر المديح والشكوى، ولكن أشهره قصائده هي لاميته في ١١١ بيتاً ومطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل
وحيلة الفضل زانتني لدى العطل
حظيت لامية العجم بالكثير من الشروح، وترجمت إلى التركية، وتميزت بكونها حافلة بالحكمة، ومطعمة بالتجربة العقلية الغذة، فهو القائل:

أعدى عدوك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل
وحسن ظنك بالأيام معجزة
فظن شراً، وكن مثها على وجل
ترجو اليقاء بدار لا ثبات لها
فهل سمعت بظلل غير منتقل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى

٣ - لامية المقرئ: العباس أحمد بن محمد القرن ١٧ م، وهو مؤرخ مغربي ولد بالجزائر، وتنقل بين فاس ومصر وسوريا والحجاز،

وقد أفرغ شعراء اللاميات معانيهم وأفكارهم وحتى مشاعرهم في قصائدهم، وأودعوا فيها مخزونهم من الحكم المستمدة من تجاربهم في الحياة وكان القاسم المشترك بينها تلك القيم الإنسانية التي ثبتت أصالتها، فلقبت القصائد الاستحسان والإعجاب، وكتب لها الخلود على الأيام.

ومما يدل على أن بعض اللاميات تكثفت فيها الفصاحة، وبلغت من البلاغة وجودة الصياغة كل مبلغ، شهادة ناقد كبيرة كالنابقلاني صاحب «إعجاز القرآن» الذي عندما أراد أن يبين إعجاز القرآن وفصاحته وبلاغة أسلوبه، عمد إلى مقارنة أسلوب القرآن بأسلوب قصيدتين تعد كل واحدة منهما قمة في عصرها، وسيدة الشعر في زمنها: لامية عمرو القيس، تاج القصائد في العصر الجاهلي، ولامية البحرزي، سيدة القصائد في العصر العباسي، فقام بمقارنة تطبيقية وتفصيلية بينهما وبين جوانب من آي الكتاب المعجز، وانتهت المقارنة إلى تفوق أسلوب القرآن الكريم على أساليب جهايزة الشعر العربي.. والقصائد العربية المعروفة باللاميات خمس، وهي:

١ - لامية العرب للشنفرى: عمرو بن مالك الأزدي، وهو من بني العرب اليمانية، وبعد من الشعراء الصعاليك، علمه «تأبط شراً» النهوصية وصنع جماعته، فأغار معهم على القبائل حتى ترضوا له وحطوه نحو ٧٠ قبل الهجرة، وصف «الشنفرى» في شعره حياته وجماعته، ترجمت لاميته الشهيرة إلى اللغات الأوروبية، وترجمت شرحها على عشرين شرحاً، ومطلع اللامية:

أبغضوا حسبي أبغضوا مطيكم
فبغضوا أبغضوا مطيكم
والمتأمل في اللامية يلمح على أسلوبها والفاظها وصورها بأنها كالميدان يمشي الشاعر في حياة النادية والتقاليد القبلية التي يعرج بها العاطفة وإن كان الرزخ العاطف فيها أقوى من الرزخ الفكري، وتركز أبياتها على تهتم الفتى العربي الطموح إلى

وما مات مناسدا حثف أنفه
ولا طبل منّا حيث كان قتيلا
ويختمها بقوله:

سلي إن جهلت، الناس عنا وعندهم
فليس سواء عالم وجهول
ويشك كثير من الباحثين في نسبة القصيدة للسموئل، ويؤكدون
بانها للشاعر عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، كما ذكر أبو العلاء
المعري في شرح الحماسة، وابن حجة الحموي في تاهيل التعريب.
لامية الهند لعبد المقتدر الكندي الدهلوي من القرن الثامن الهجري،
وينحدر من أسرة قضاء أفاضل، وينتهي نسبه إلى شريح بن
الحارث قاضي الكوفة في عهد عمر بن الخطاب، وزادت أبياتها
عن التسعين بيتاً، سادها الغزل المهذب الوقور والفخر يسجانيا
قومه كالكرم والشجاعة وعراقة النسب، ومطلع لامية الدهلوي:

يا سائق الطعن في الأسحار والأصل
سلم على سلمى فابك ثم سل
عن الظباء التي من دابها أبدأ
صيد الأسود يحسن الذل والتجل
وفيها قوله:

وانني رجل من معشر سحبيوا
ذيل التبتل والتقوى على زحل
لا يطمحون، ولكن كان ديدنهم
إعطاء ما ملكوا كالعارض الهطل
أسد إذا سخطوا أفنوا عدوهم
قوم إذا فرحوا أعطوا بلا ملل
ما قال قائلهم يوماً لواحدهم
لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
لامية الماليك، لابن خلدون، المؤرخ الشهير وصاحب المؤلف
الذائع «العبر وديوان المبتدأ والخير»، وربما كانت هذه القصيدة
دليلاً على أن «ابن خلدون» لم يكن مؤرخاً وعالم اجتماع وحسب،
بل كان شاعراً أيضاً. ولهذه اللامية التي جاءت في ٦٧ بيتاً،
مناسبة يذكرها الباحثون، وذلك أن الملك الظاهر نغم على ابن
خلدون لما ولي القضاء بمصر والشام سنة ١٠٠٨، لعصيانته له
فيما يريد من أحكام القضاء، فعزله عن الوكالة، فتوسل ابن
خلدون للعودة إلى قلب السلطان بهذه القصيدة التي مطلعها:

سيدي، والظنون في بيتك حميد
واياديك بالأمانتي كفيديني
لا تحل عن جديليل، إليك الذي
مالي اليوم غنمك فيك حبيبي
واصطنعني كما اصطنعت أسداً
يد من سيفك أويديني
لا تُضعني، فوالله ما كنت
ذممة الحب والإسدي الضمير
وأجرني فالظن من صنائي
وأجرني إلى حملي حبيبي

وأكثر الإقامة بدمشق، ومن أشهر مؤلفاته: نفع الطيب من غصن
الأندلس الرطيب وإن اشتهر بلاميته التي مطلعها:

زيادة القول تحكي النقص في العمل
ومنطق المرء قد يهديه للزلزل
٤ - لامية الصفدي: خليل بن إيبك ١٢٩٦ - ١٣٦٣م، وهو أديب
ومؤرخ، ولد في مدينة صفد بفلسطين ومات بدمشق، درس الأدب
واللغة والفقه، وبرع في الخط، تولى ديوان الإنشاء في صفد ثم
في القاهرة ودمشق وحلب، ودرس في الجامع الأموي، صنف
أكثر من ٥٠٠ كتاب، أشهرها «الواقي بالوقيات» و«تحفة نوري
الآلجباب» وشرح لامية العرب للطبراني، أما لاميته فمطلعها:

المجد في الجد والحرماني في الحسبل
فأنصب ثصب عن قريب غاية الأمل
وفيها قوله:

واصبر علي كل ما يأتي الزمان به
صبر الحسام بكف الدارع البطل
واستشعر الحلم في كل الأمور ولا
تسرع ببادرة يوماً إلى رجل
من جاد ساد وأصيا العالمون به
بديع حمد، بمدح الفعيل متصل
٥ - لامية ابن الوردي «عمر بن المظفر» ١٢٩١ - ١٣٤٩م، ولد
بمعة النعمان ومات بحلب، تولى منصب القائم مقام القاضي محمد
بن النقيب بعد وفاة الأخير، له ديوان شعر يضم مقاماته، ومن
مؤلفاته: «الشهاب الناقب» في التصوف، وشرح ألفية ابن مالك،
ومطلع لاميته:

اعتزل ذكر الغواني والغزل
وقل الفصل وجانب من هزل
ويضيف التقاد إلى تلك اللاميات مجموعة أخرى لا تقل شهرة
عنها، ومنها:

لامية سموئل بن غريص بن عدياء المتوفي حوالي ٥٦٠م، وهو
شاعر جاهلي يهودي، عاش بحصن الأبلق، قرب تيماء، بين الشام
والحجاز، اشتهر بالوفاء، له ديوان صغير يصور في شعره الخلق
العربي الجاهلي وصفات العزة والكرم والمتعة، ومما في لامية
«السموئل»:

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل
وفيها قوله الشهير:

تعيرنا أنا قليل عديدا
فقلت لها: إن الكرام قليل
وإن القوم لا نرى القتل سببة
إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حين الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول